أوراق إستراتيجية

الصهيونيّة في أزمة

The Middle East Forum *January, 2006*

By: Meyrav Wurmser[1]
January, 2006

الصهيونيّة في أزمة. لقد كشف الإنسحاب الإسرائيلي من مستوطنات قطاع غزّة في آب 2005، عن إنقسامات عميقة داخل المجتمع وفي السياسة الإسرائيليّة، إلاّ أنّ الإنفصال الإسرائيلي من جانب واحد وعمليّة صنع السلام السابقة منذ عشر سنوات لم يكونا السبب بخلق هذه الأزمة؛ بالأحرى لقد كشفت مشكلة كانت خامدة.

أمّا في الحقيقة، فإنّ الخلافات بين المؤيّدين والمعارضين للإنسحاب تُعتبر عميقة بسبب عمق النقاش، وبما أنّ الأزمة ليست جديدة، فهي إمتصّت فقط التوجّه الإسرائيلي السائد من أطراف المجتمع الى قلب الخريطة السياسيّة الإسرائيليّة.

وقد كانت الصهيونيّة حتّى الآن إنجازاً ملفتاً للنظر، ليس فقط بالإشارة الى نجاحها في تأسيس مجتمع حر ومزدهر، وإنّما لدفاعها عن إستقلالها، من دون قوى خارجيّة، ضد إعتداءات متعدّدة. وتقف إسرائيل في مصاف دول قليلة مُستعمرة سابقاً مثبتةً نجاحها- الولايات المتّحدة من بين هذه الدول.

إلاّ أنّ الإنقسامات الآن داخل المجتمع الإسرائيلي بدأت تصبح واضحة للغاية، بحيث أنّها باتت تهدّد ما يوحّد أغلب الإسرائيليّين، حيث أنّ الإسرائيليّين الآن يؤيّدون السياسات المعارضة تماماً ويواجهون بعضهم بإنفعال كان غائباً عادة عن الخطاب الوطني الطبيعي. وتختلف فئات المجتمع الإسرائيلي المتنوّعة، ليس من جهة الإيمان بعمليّة السلام والأمن فقط، وإنّما أيضاً في الرؤيا حول الدين، الأخلاق، الديمقراطيّة والوطنيّة.

معركة الأعلام

ويظهر عمق التوتّر على خلفيّة الإنسحاب جليّاً في معركة الأعلام في شوارع إسرائيل. فأثناء إحتفالات 11 أيّار 2005، بيوم الإستقلال، إختار عدد من اليهود الإسرائيليّين- ومن العجيب أنّهم من أكثر الفئات المجتمع وطنيّة- ليس فقط أن يلوّحوا بالأعلام الإسرائيليّة الزرقاء والبيضاء، وإنّما بالأعلام البرتقاليّة أيضاً، حيث أنّهم وبإختيارهم لون حكومة بلديّة غزّة، سعوا الى التعبير عن معارضتهم الإنسحاب من غزّة، وعن تضامنهم مع حوالي 9000 مستوطن يهودي موجودين فيها.

أمّا المعسكر البرتقالي، فهو المعسكر الديني- الوطني في إسرائيل، ويشمل ليس فقط مستوطني غزّة، وإنّما أيضاً الداعمين لهم في بلدات الضفّة الغربيّة ومدناً إسرائيليّة أخرى مختلفة. وبعدما بدأت الحملة البرتقاليّة تؤثّر على الرأي العام، قام المؤيّدون للإنسحاب بالتجاوب مع الحملة الزرقاء والبيضاء محتشدين حول العلم الاسرائيلي .

وشعر المعسكر البرتقالي بشعور طارىء كبير واعتبر نفسه في معركة دفاعية لإنقاذ رؤيته لدولة إسرائيل؛ وكان المعسكر الأزرق المؤلّف بشكل رئيسي من اليسار الإسرائيلي أقل إرتياحاً مع فكرة الوطنيّة.

كما أنّه وجد نفسه في موقع محرج بسبب الدفاع عن آرييل شارون، رئيس الوزراء من حزب الليكود والشيطاني في الدوائر اليساريّة.

---

[1] **Work in : Institute for Advanced Strategic and Political Studies**

وبقيام الإسرائيليّين بتثبيت مواقعهم بالأعلام المتدلّية من الشرفات وبالأقمشة المربوطة الى أنتينات السيارات، سيطر المعسكر البرتقالي على الأزرق، وعكست المعركة الإنقسام الحاصل بين فريقي المجتمع الإسرائيلي، الّذي كان الى حين وقت الإنسحاب المُخطّط له من غزّة، متعايشاً مع بعضه بسلام. إنّ الإنقسام ليس جديداً، فهو، في الواقع، يرجع الى ما قبل الإستقلال الإسرائيلي.

روح الصهيونيّة

ومنذ وجودها قبل قرن من الزمن، مثّلت الصهيونيّة طريقه للشعب اليهودي للإنعتاق من التشتّت والنبذ الّذي عاشوا فيه، وسرعان ما تشكّل المعسكران داخل الحركة الصهيونيّة: صهيونيّة الجناح الأيسر الإشتراكي، وصهيونيّة الجناح الأيمن التحرّري الكلاسيكي. ويعتقد كل من الجناحين أنّ الآخر يشكّل خطراً على جوهر وروح ما يفترض أن تكوّنه الصهيونيّة.

ويعتقد إسرائيليّو الجناح الأيسر أنّ المستوطنات تمثّل الإحتلال اللاأخلاقي لشعب آخر، كما أنّها تمثّل التطرّف الديني (فكرة الخلاص) الذي أصبح عائقاً للسلام بين إسرائيل وجيرانها.

لقد إنبثق اليسار من فكرة في القرن التاسع عشر وتجسّدت بواسطة المفكّرالصهيوني العمّالي Aharon David Gordon، الّذي كان هو نفسه يردّد صدى أفكار حركة الإصلاح الزراعي العلمانيّة لليو تولستوي، والّتي تقول أنّ عودة الشعب اليهودي الى أرض إسرائيل ستسمح لهم بالعمل في أرضها وترابها، وبأنّ العامل اليهودي قد يحرر الروح اليهوديّة ببناء روح إصلاحيّة إشتراكيّة وعلمانيّة.

وفي أوائل القرن العشرين إنسلّت أفكار إشتراكيّة أكثر حداثة من ألمانيا كذلك فكرة تقول بخلق بروليتاريا صناعيّة يهوديّة لتنضم مفهوم الإصلاح الزراعي للصهيونيّة العماليّة العلمانيّة. إذن، وبالنسبة لليسار، فإنّ خلق قوّة عماليّة يهوديّة بالكامل للعمل في الأرض والمصانع داخل جزء من أرض إسرائيل كان أمراً أكثر أهميّة من إستعادة السيطرة الوطنيّة اليهوديّة على كل أرض إسرائيل، كما هو محدّد في دينهم- خاصّة إذا كان الأمر الأخير يعني خلط القوّة العاملة اليهوديّة مع العرب. لقد حدّدت هذه الأسس الإيديولوجيّة الميثولوجيا (الأسطورة) اليساريّة عن الـ Kibbutzim – عامّة الشعب من الإصلاحيّين الزراعيّين- وهم العمّال اليهود الفريدين.

وبتبايُن كبير، يؤمن المستوطنون بجوهر حركتهم الإيديولوجيّة، بأنّ بناء المستوطنات هي حاجة صهيونيّة كما هي الوصايا العشر الدينيّة. ويرتكز المعسكر الوطني- الديني صاحب الأعلام البرتقاليّة في إسرائيل الى أتباع الحاخام الراحل Avraham Yitzhak kook (1865-1935)، الى الحاخام الأكبر والأشكينازي الأوّل لفلسطين المنتدبَة، كما أنّ kook المؤيّد للصهيونيّة حاول أن يبرهن على أنّ الدين كان جوهريّاً للمشروع الصهيوني، وآمن بالصلة بين أرض إسرائيل وبين الدين اليهودي، وإدّعى بأنّ الشعب اليهودي يمكنه أن يتحرّر وينجز الغاية من نبوءته فقط من خلال توحيد الدين ثانية مع أرض إسرائيل.

ورغم أنّ kook توفي قبل تأسيس إسرائيل فإنّ إبنه الحاخام Zri Yehuda Kook (1891-1982) قام بتعديل أفكار والده المثاليّة لتلائم الوقائع السياسيّة الإسرائيليّة. إنّ مقاربته الروحيّة- البراغماتيّة للعلاقة اليهوديّة الأرثوذوكسيّة مع دولة إسرائيل العلمانيّة ركّزت على أنّه كيف يمكن للفئة المتدنية من المجتمع الإسرائيلي أن تدفع بالمشروع الصهيوني الى الأمام. وقد أصبح خطابه الّذي ألقاه سنة 1967، قبل حرب الستّة أيّام صرخة للم شعث المعسكر الصهيوني- الديني، إذ تذمّر الحاخام قائلاً ودموعه تسيل: " إنّ وطني مقسّم. أين الخليل؟ أين نابلس، هل ننساها؟ وأين أريحا، هل ننساها؟ ".

تأثير حرب سنة 1967

لقد أعتُبرت كلمات kook بمثابة نبوءة عندما إنتزعت القوّات الإسرائيليّة الضفّة الغربيّة من السيطرة الأردنيّة ووضعت المنطقة تحت السيطرة اليهوديّة لأوّل مرّة منذ الفي عام. وكان خطابه نقطة تحوُّل كبرى للصهيونيّة الدينيّة الّتي بدأت بالتعريف عن نفسها بأكبر المصطلحات الإقليميّة.

والى حين موته، قاد Kook النضال لمنع المساومة الإقليميّة لأجل عمليّة السلام. وبعد حرب الأيّام الستّة، كان يناقش بأنّ الإلتزام الديني يفرض على إسرائيل الدفاع عن الأراضي المُكتسبة، وأنّ الأرض لا يمكن تسليمها الى العرب لأنّها أُعطيت لليهود من قِبَل الرب، وهكذا، لم يكن هناك من أراض عربيّة في Ertz Yisrael حيث لا يمكن إعطاء أي جزء من أرض إسرائيليّة لتكون تحت سيطرة غير اليهود. وعلى الرغم من أنّ Kook كان لديه إحترام عميق للدولة اليهوديّة ولمؤسّساتها، فإنّه ناقش مسألة أنّ اليهود كانوا مُجبرين على الإعتراض على القرارات بإخلاء المستوطنات. وقد جعل Kook كلماته تدخل الى القلوب في العام 1974 عندما قرّرت حكومة رئيس الوزراء إسحق رابين الأولى إخلاء

مستوطنة غير شرعيّة في سيباستيا، وهي موقع توراتي قرب نابلس في الضفّة الغربيّة. وشارك Kook في محاولة المستوطنين منع الإخلاء، معلناً للجنود أنّه " كما أنّكم لن تكونوا قادرين على إجباري بتناول لحم الخنزير، فإنّه لن يمكنكم إخلائي من هنا "، ومع ذلك، وبعدما تكلّم معه أحد الجنرالات الإسرائيليّين الحاضرين، فإنّ Kook غادر المكان من دون إستعمال العنف.

إنّ المستوطنين الّذين عارضوا الإنسحاب من غزّة هم من مريدي Kook. وكالحاخام، فإنّهم يرون دولة إسرائيل بمثابة تجسيد لكل الأحلام الصهيونيّة والدينيّة. وإنّ أرض إسرائيل، كما يعتقدون، عادت بمعجزة للملكيّة اليهوديّة، ولذلك فإنّ لديهم إلتزاماً دينيّاً بترسيخها.

من " يملك " إسرائيل

إنّ الحوار حول جوهر الصهيونيّة يتكوّن من أكثر من جدال حول من " يملك " الدولة اليهوديّة: أولئك الّذين حملوا ثقل تأسيسها، أم أولئك الّذين يحملون الآن عبء الدفاع عنها.

ويعتقد اليسار انّ الحركة الصهيونيّة- العماليّة العلمانيّة هي الّتي مهّدت الطريق لأرض إسرائيل وهي الّتي أسّست الصناعة وحاربت للدفاع عن الأرض الّتي أصبحت دولة في سنة 1948.

وإنّ عدداً من المجتمعات الإسرائيليّة- بما فيها اليهود السفارديم والقوميّين العلمانيّين والمتديّنين- قُبلوا كإسرائيليّين، إلاّ أنّهم عانوا من إفتقارهم الإدّعاء بملكيّة إسرائيل بما أنّهم إمّا جاؤوا متأخّرين وإمّا لأنّه كان يُنظر اليهم كمساهمين صغار في تأسيس الدولة. لقد كان هناك نزعة واسعة بين تلك المجموعات- والعديد منها يمثّل الآن أكثريّات في كل المؤسّسات الإسرائيليّة، بما فيها فيالق ضبّاط الجيش ووحدات النخبة- لتثمين وتقييم إدّعائهم بإمتلاك المشروع الصهيوني أيضاً.

وبشكل مشابه، فقد إعتبر اليسار مساهمة المعسكر الديني- الوطني هامشيّة في هذا الصدد. ولسنوات، عاش الصهاينة المتديّنون مع عقدة نقص وجهاً لوجه مع الصهيونيّة العلمانيّة. وعلى الرغم أنّهم إعترفوا بأنّ الصهاينة العلمانيّين كانوا الممهّدين لبناء الدولة والّذين أسّسوا الـ Kibbutzim، كما أنّهم دافعوا عن الوطن عندما كان الصهاينة المتديّنون ذوي نزعة مدنيّة أقل، قاصرين أنفسهم على دراسة Yeshiva (مدرسة دينيّة). وبالطبع، فإنّ قلب المؤسّسة الدفاعيّة الإسرائيليّة أتى في النصف الأوّل من القرن من الـ Kibbutzim.

إلاّ أنّه ومنذ العام 1967، فإنّ تحولاً دراماتيكيّاً مثيراً قد حدث. لقد خسر المعسكر العلماني قوّته الصهيونيّة وأصبح دوليّاً بشكل متزايد، كما أنّه ركّز على المأزق الأخلاقي الناتج عن إحتلال المناطق الفلسطينيّة. ويعتقد الصهاينة اليساريّون بانّ التمسّك بالأرض يتطلّب منهم عبء إستمرار الحرب لتنفيذ أحلام المعسكر الصهيوني- الديني بدلاً من صنع السلام الّذي يجيز لهم أن يصبحوا دولة مقبولة و " طبيعيّة ".

لقد حلّ الصهاينة المتديّنون محل القوميّة اليساريّة الباهتة. واليوم، فإنّ أكثر من نصف فيالق الضباط الإسرائيليّين مؤلّف من الجنود الأرثوذوكس، وهم، وليس الـ Kibbutzim، يتحمّلون الآن حصّة الأسد للدفاع عن إسرائيل.

وبعد، وببناء المستوطنات، فإنّ الصهاينة المتديّنين مهّدوا أيضاً الطريق لأرض إسرائيل، وبهذا فإنّهم دعموا إدّعاءهم بحصّتهم من المشروع الصهيوني. ولم تكن تلك أيّة أرض؛ ففي بناء المستوطنات، قام الصهاينة المتديّنون بإعادة تأسيس الوجود اليهودي الحديث في بعض مناطق أريحا الأكثر قدسيّة، مثل المنطقة حول أضرحة آباء الجنس البشري (المذكورين في التوراة) في الخليل ونابلس (Schechem)، المكان الّذي أكّد الله وعده لإبراهيم بأرض إسرائيل. لقد قاموا بذلك لخدمة الحكومات الإسرائيليّة سواء اليمينيّة أو اليساريّة والّتي قدّمت حوافز ماليّة وإستعملتهم لتحديد وتأمين حدود إسرائيل. ولكن، وعلى خلاف المستوطنين الّذين يتحرّكون ويتنقّلون حسب الوضع الإقتصادي، فإنّ الوطنيّين المتديّنين لزموا بيوتهم عندما هاجمهم وهاجم أطفالهم الإرهابيّون الفلسطينيّون. لقد إختاروا البقاء وغالباً بثمن شخصي باهظ جدّاً، حيث قام إسرائيليّو الجناح الأيسر أوّلاً ومن ثمّ شارون بإزدراء تضحياتهم. إنّ إحساسهم بالخيانة وبالأزمة الإيديولوجيّة كبير.

وبينما كافح المعسكر الصهيوني- الديني لوقف الإنسحاب، فإنّ نشاطاته كانت أكثر من مجرّد محاولة للحفاظ على منطقة معيّنة تحت السيطرة اليهوديّة، وكانت نضالاً لما يعتبرونه روح المشروع الصهيوني والجبهة الأماميّة لما يعتقدون أنّهم يعرفونه ويدافعون عنه ويمهّدون لأجله.

وما أن كانوا على وشك الإنضمام أو الحلول محل العائلة الصهيونيّة- العماليّة الحاكمة و" المالكة " لإسرائيل، حتّى تمّ إلغاء التضحيات الشخصيّة الّتي قدّموها للأرض الّتي حرّروها- وبهذا، وبإدّعائهم إمتلاك المشروع الصهيوني، فإنّهم سيواجهون مرّة أخرى وصفهم بالغرباء كما كان الحال في السابق عند تأسيس الدولة.

وما يثير السخرية، أنّ هذه المعركة حصلت حول غزّة الّتي إعتُبرت جزءاً من إسرائيل التوراتيّة لكنّها أقل أهميّة من الناحية الدينيّة من مواقع دينيّة أخرى في الضفّة الغربيّة والقدس. إلاّ أنّ غزّة تصنع أجندة لإنسحابات أخرى بينما تسعى إسرائيل لتحديد حدودها الدائمة. إنّ مخاوف اليمين المتديّن من أنّ الإنسحاب من غزّة يمكن أن يتبعه إنسحابات أخرى من بلدات الضفّة الغربيّة كالخليل، ثاني أقدس مكان في أريحا بعد القدس. إنّ النضال لأجل غزّة يجب أن يخرج للملأ، كما يعتقدون، إذا كان المطلوب إنقاذ مدينة الخليل.

الإنقسامات في المعسكر الوطني- الديني.

يكشف الإنسحاب أيضاً الإنقسامات داخل المعسكر البرتقالي- وليس فقط بين التوجّه السائد وبين الأقليّة الأكثر تطرّفاً وعنفاً كأتباع الحاخام الراحل مائير كاهان. وبالأحرى، لقد كان هناك خلاف بالغ الأهميّة داخل الأكثريّة بما يتعلّق بالوسائل الشرعيّة للنضال ضدّ الإنسحاب.

وقد دعمت الأغلبيّة في هذا المعسكر العصيان المدني وعارضوا العنف ضدّ الشرطة والقوّات المسلّحة.

لقد بدّل أبطال العصيان التكتيكات عدّة مرّات والّتي كانت عبارة عن سلسلة من الإجراءات اللاعنفيّة، ويشمل ذلك وضع النجوم البرتقاليّة وسد التقاطعات والمداخل الى المدارس في تل أبيب، أمّا بالنسبة لإزعاجهم الرأي العام، فإنّهم كانوا يسعون للتأثير لمعارضة الإنسحاب، إلاّ أنّ السؤال الأصعب الّذي واجه المعسكر الوطني- الديني لا حقاً لم يكن يتعلّق بالتكتيكات، وإنّما بكيفيّة الموازنة بين الواجب الديني وبين الإلتزام الوطني. لقد واجه الجنود والضبّاط الوطنيّون- المتديّنون مأزقاً واضحاً. فهل يجب عليهم تنفيذ أوامر قادتهم بإخلاء المستوطنات في غزّة على رغم رؤيتهم أنّ أوامر إلهيّة وكذلك نداءات الحاخامات تدعوهم لمعارضة الإخلاء؟

لقد ناشد القائد الروحي للمعسكر الصهيوني- الديني كبير الحاخامات الأشكينازي Avraham Shapira الجنود بعصيان الأوامر لإخلاء غزّة حتّى ولو كلّفهم ذلك خطر الموت أو الإعتقال. وعلى كل حال، فإنّ الحاخام Shlomo Aviner، رئيس Aleretet Kohanian Yeshiva وحاخام قسم كبير من مستوطنة بيت إيل، قال بانّ العصيان المدني كان شرعياً، إلاّ أنّ على الجنود إتباع أوامر قادتهم وإلاّ فإنّ الجيش الإسرائيلي يمكن أن ينهار. والى الآن، فإنّ حاخام بيت إيل Zalman Melamed منضم مع Shapira في الإعتراض على أمر الإنسحاب مدّعياً أنّه لو كان Kook حيّاً، فإنّه أيضاً قد يقوم بمباشرة الجنود بأن يعارضوا ذلك الإنسحاب.

إنّ نداء الحاخامات بالإعتراض على الإنسحاب كان السبب وراء إعلان أكثر من 20000 جندي من قوّات الدفاع الإسرائيليّة الأرثوذوكس أنّهم لن ينفذوا الأوامر بالإخلاء، وأنّهم سيختارون السجن بدلاً من ذلك. وقاد هذا بدوره قائد أركان قوّات الدفاع الإسرائيليّة Dan Halutz الى التهديد بأنّه سيغلق كل الـ " Hesder Yeshivas " الصهيونيّة- الدينيّة، حيث يدمج التلاميذ الدراسة الدينيّة مع الخدمة العسكريّة.

إنّ محاولة المعسكر الوطني- الديني إيجاد تغيير في الرأي العام تحوّل ليكون ناجحاً نوعاً ما. ففي الشهرين الأخيرين، قامت حملتهم بتخفيض الدعم للإنفصال، من حوالي ثلثي الإسرائيليّين الى حوالي 50 بالمئة، وما عدا الحالة التي سبّبت نشاطاتهم فيها ردّة فعل عكسيّة- مثلما عمدوا مرّة الى صب الزيت والمسامير على الطريق السريعة بين القدس وتل أبيب- فإنّهم كانوا يكسبون، ببطء، التعاطف من أجزاء أكبر من المجتمع الإسرائيلي. إلاّ أنّ المعسكر البرتقالي لم يقم بإعتداءات على أي من كل من اليسار الإسرائيلي أو حكومة شارون الّذين ظلّوا معارضين لمواقفهم.

الدين العلماني لليسار الإسرائيلي الجديد

بإرتدائهم القمصان الزرقاء وتلويحهم بالأعلام الزرقاء، كان أولئك الإسرائيليّون يعتقدون بأنّ إسرائيل لا يمكنها البقاء من دون حدود دائمة. إلاّ أنّ هذه المجموعة مؤلّفة من المساندين في الجناح الأيمن لشارون ولليسار. ويؤمن الداعمون لشارون بأنّ الإنسحاب ضروري للإنفصال عن الفلسطينيّين ولتخفيض التهديد الديمغرافي لإسرائيل الّذي يتنامى بتزايد عدد السكّان في غزّة.

وقد حافظ المؤيّدون للإنفصال من الجناح الأيمن على صورة سيّئة، لكنّهم كانوا أقليّة.

إنّ الأصوات البارزة في المعسكر المؤيّد للإنسحاب ترجع الى أولئك اليساريّين الّذين يرون بأنّ الإحتلال يجعل المجتمع الإسرائيلي متآكلاً ولا أخلاقي. وبالنسبة لهم، فإنّ إنقاذ المشروع الصهيوني يعني الرحيل عن غزّة والخليل، ويعتقد العديد أنّ الإنسحاب سوف يجعل الوجود اليهودي طبيعيّاً، ويرسّخ إسرائيل كمجتمع غربي يعيش بسلام مع جيرانه.

ويدرك هذا المعسكر أنّ إسرائيل تواجه بتراً مؤلماً وخطراً، لكنّه يدرك بأنّ الجراحة ضروريّة لإنقاذ باقي الجسم، أي المشروع الصهيوني نفسه.
وقد إنتظرت إحدى الفرق المنشقّة المتطرّفة هذه الجراحة بفرح، فبالنسبة لهم، قدّم الإنفصال ليس فقط الفرصة بإنهاء الإحتلال وإنّما أيضاً الفرصة للحد من تأثير الدين اليهودي والقوميّة على الروح الوطنيّة كما قدّم الفرصة لتحويل إسرائيل الى مجتمع علماني حديث.
ومنذ السبعينات- وحتّى أكثر من ذلك، منذ إتّفاقات أوسلو- تبنّى اليسار الإسرائيلي السلام كمبرّر لوجوده. إلاّ أنّه ومنذ إغتيال رابين في العام 1995، أصبح السلام فكرة أقل إيديولوجيّة ليتحوّل الى شكل من الهويّة الوطنيّة. ويقدّم السلام هويّة ورمزاً أخلاقيّاً للمعسكر الّذي وجد نفسه في صراع مع مركّبَين من مركبات الهويّة الإسرائيليّة: أرض إسرائيل والدين اليهودي.
وبالنسبة للكثيرين في هذه المجموعة، فإنّ الهويّة الإسرائيليّة محدّدة في مصطلحات اللغة، الثقافة والسلوك. إنّهم يرون أنفسهم كديمقراطيّين، إنسانيّين ومتسامحين- أكثر من الدول الوطنيّة والدينيّة العتيقة.
كما أنّهم مؤمنون بأنّ الإحتلال الإسرائيلي المستمر واللاأخلاقي هو العامل الأوحد الذي يمنع إسرائيل من أن تصبح دولة مُرحباً بها في أسرة الدول الغربيّة.
لقد أحيا إخلاء المستوطنات في غزّة المعسكر الأزرق، الّذي يتراجع أخلاقياً منذ فشل أوسلو وسقوط حكومة إيهود باراك، وقد دعم أغلب أعضاؤه الإنفصال على الرغم من النفور من شارون إلاّ أنّ خطّته حرّكت إسرائيل خطوة نحو إنهاء الإحتلال والتأسيس، في إعتقادهم، لتعايُش سلمي مع السلطة الفلسطينيّة.

النقاش والديمقراطيّة الإسرائيليّة
إنّ اليسار الذي يرى نفسه تجسيداً للمذهب العقلي (مبدأ إعتبار العقل الحكم أو الفيصل في قضايا الفكر أو المعتقد أو السلوك) ولحركة التاريخ، بوغِتَ بالدعم الشعبي الذي ولّده المعسكر البرتقالي، وفي الرد على ذلك، قام المعسكر الأزرق بتحدّي المعسكر البرتقالي، وذلك بتعليق آماله على التظاهر حيث كان هناك أكثريّة صامتة من الإسرائيليّين تدعم الإنفصال، وكانوا يعتقدون أنّهم يخوضون حرباً لإسماع صوتهم في إسرائيل المحكومة بأصوات اليمين.
لقد ركّزت إسرائيل مناقشاتنا على الحدود الّتي على المجتمع الإلتزام بها وذلك بالنسبة لأولئك الذين، وبإسم التعبير عن الحريّة، يحاولون تدميره.
وقام المعلّقون (في البرامج التلفزيونيّة) الكبار اليساريّون بإثارة صورة Weimar للجمهوريّة الألمانيّة والتي كانت عاجزة عن منع- من خلال الوسائل الديمقراطيّة- نشوء سلطة هتلر والنظام النازي، وإعتقدوا أنّه طالما أنّ الكنيست الإسرائيلي قد وافق على خطّة الإنسحاب، فإنّ حملة المعارضين للإنسحاب كانت تمثّل تهديداً حقيقيّاً للديمقراطيّة، وهذا هو السبب الذي جعل المعلّقين اليساريّين يدعمون خطوات قاسية لمعاقبة المستوطنين. لقد إستندوا على مبادرة مكتب الوكيل العام بجعل المحاكم تعلن أن المستوطنين الّذين شجّعوا أولادهم على المشاركة في التظاهرات هم متعسّفون ويمكن أن يخسروا حق حضانة أطفالهم. وهذا هو السبب لِمَ، المؤيّدون البارزون للحقوق في إسرائيل، إختاروا عدم التظاهر عندما تمّ إعتقال عدّة فتيات مراهقات من المستوطنين تتراوح أعمارهنّ بين 12 و 18 سنة من دون محاكمة لأكثر من شهر لأنّهن شاركن في سد الطرقات، وطبعاً، ولإظهار كم أصبحت هذه المسألة مثيرة عاطفيّاً، قام أحد المعلّقين اليساريّين البارزين وهو Yaron London بكتابة مقالة صحفيّة في الصحيفة الإسرائيليّة الأولى يدعوت أحرنوت بعنوان " بلاغ الى الفاشيّين البرتقاليّين " والذي هدّد فيه بأن ينفّذ القانون بيديه ويضرب " قطّاع الطرق أصحاب اللباس البرتقالي ".
إنّ تشبيه ومقارنة الجناح الأيسر للجناح الأيمن الإسرائيلي بالنازيّة، ونداءه للقيام بإجراءات إنتقاميّة قاسية للرد على اليمين فتح أيضاً صدعاً آخر في المجتمع الإسرائيلي. وأثناء إخلاء المستوطنات، كانت المعارضة البرتقاليّة لا عنفيّة، لقد كان هناك أعمال من العصيان المدني وتخلّي حوالي 63 جنديّاً عن مهمّاتهم. إلاّ أنّه كان هناك مسألتان حاسمتان مهمّتان، الأولى أنّ الجيش الإسرائيلي والشرطة قاما بإخلاء فندق قسراً على ساحل غزّة تمّ إحتلاله من قِبَل بعض أكثر العناصر المسلّحة تطرّفاً، ومع ذلك، فلم يتم إطلاق الرصاص. أمّا الثانية، فكانت مسيرة ضخمة الى غزّة تمّ إيقافها على حدود كفر ميمون، ثمّ حُلّت بعد يومين من الصد بدلاً من المواجهة العنيفة مع الشرطة، وأثناء المسيرة، إستخدم المنظّمون مكبّرات الصوت لتحذير الجماهير من أنّ عليهم إستخدام الوسائل السلميّة فقط، وقد نجح الأمر. فمن بين المئات الّذين مشوا في المسيرة تمّ إعتقال حوالي 6 أشخاص بسبب شجار بسيط. ومع ذلك، ورغم محاولة القادة المستوطنين منع إستخدام العنف، فإنّ بعضهم إستعمل القوّة الجسديّة ضدّ الجنود.

وقبل الإنسحاب، فإنّ قسوة الرد على النشاطات اللاعنفيّة للمستوطنين والمؤيّدة من قِبَل اليسار، قادت العديد في اليمين الى القول بأنّ اليسار يسعى لهكذا إجراءات ليس لأجل حماية الديمقراطيّة وحقّ الإختلاف، وإنّما لإفساد النقاش والحوار حيث بدأوا يخسرون حجّتهم. وقال اليسار بأنّ جماعتهم من المتظاهرين يشبهون جماعة مارتن لوثر كينغ في الستينات: حملة كان مقصدها تحدي المعايير والقواعد القائمة- من دون الإطاحة بالنظام الديمقراطي. وهكذا، وبينما يدّعي كلا الجانبان بأنّهما كانا ينقذان الصهيونيّة من الدمار بواسطة المعسكر الآخر، فكذلك كانا يتجادلان بأنّهما كانا يحاولان إنقاذ الديمقراطيّة الإسرائيليّة من النوايا المدمّرة للمعسكر الآخر. لقد أصبحت الأزمة في المجتمع الإسرائيلي قاسية الى حد أنّ حتّى حدود النقاش الديمقراطي لم تعد مسألة إجماع وطني.

" اليهود " ضد " الإسرائيليّين "

وتستمر حرب الألوان الإسرائيليّة لتكون معركة حول روح إسرائيل وروح الصهيونيّة. ومنذ أن تمّ الإنسحاب، كما خطط له، فإنّ المعسكر الوطني- الديني، الّذي جدّد نشاطاته بواسطة حملته، يسأل نفسه ما الذي تبقّى من معتقداته وعلى أيّة أسس يمكنه أن يستمر بإدّعاء ملكيّة المشروع الصهيوني. لقد نادى بعضهم بإنهاء تحالفهم مع إسرائيل العلمانيّة أو " Haredi "، ويقوم آخرون بالبحث عن الذات عن طريق السعي لتحديد لماذا فشلت الصهيونيّة الدينيّة بجذب أغلب الإسرائيليّين.

ومنذ الإنسحاب، تغيّرت مصطلحات النقاش والحوار بحيث أنّه لا يوجد نقاش حول الأرض والإحتلال وإنّما حول الحرب الثقافيّة أيضاً بين فريقي المجتمع الإسرائيلي: الإسرائيليّون الذين يعتقدون أنّ الدولة اليهوديّة لا يمكن أن تتواجد من دون إرتباط قوي بالدين اليهودي، والإسرائيليّون الذين يعتقدون بأنّه يجب على إسرائيل أن تصبح مجتمعاً علمانيّاً.

إنّ هذه الحرب الثقافيّة تمثّل الإنقسام بين " الإسرائيليّين " العلمانيّين وبين اليهود المتديّنين، إذ يعتقد كل من الفريقين أن عليه أن يحدّد طبيعة وصفات الدولة.

إنّ المدى الّذي بلغته أزمة اليهوديّة في قلب المجتمع الإسرائيلي، والعلاقة الصعبة بين الوطنيّة اليهوديّة والدين كان جليّاً خلال الإحتفال بيوم الإستقلال عام 2005 وخلال العطلة، سألت الصحيفة اليوميّة هآريتز بعض الكتّاب والمفكّرين والفنانين والحاخامات سؤالاً حول تحديد هويّة إسرائيل. وكجزء من هذا المشروع، وضعت الصحيفة قائمة من الكلمات الفصحى والعاميّة الّتي تعكس روح المجتمع الإسرائيلي. أمّا المصطلحات التي كانت مسيطرة على القائمة، فكانت تعكس السلوك المندفع وغير المهذّب. وقد أشرت القائمة الى حقيقة هي أنّ العديد من الإسرائيليّين البارزين يعرّفون جوهر هويّتهم الوطنيّة ليس بأكثر من كونها مزاجاً أو رمزاً للسلوك.

وإنّ هكذا تعريف غير يهودي لهويّة إسرائيل يعكس المفارقة اليهوديّة النموذجيّة: محاولة اليهود العصريّين الهروب بإستمرار من القدر اليهودي، تحديد الفرد لهويّته- تماماً كما فعل الصهاينة الأوائل الّذين كانوا يتبنّون الدولة اليهوديّة العلمانيّة.

وإنّ السؤال السائد الذي على الإسرائيليّين الآن أن يتصارعوا حوله عبر الطيف السياسي، هو عمّا إذا كان بإمكان إسرائيل الإستمرار بالوجود كدولة صهيونيّة من دون الإحتكاك بالديانة اليهوديّة.

إنّ المفكرين البارزين اليساريّين، كالكاتب Amos Oz، يدّعون أنّه ليس على إسرائيل أن تصبح علمانيّة فقط، وإنّما يقولون أيضاً أنّ هذا هو الطريق الوحيد لتحويلها الى مجتمع حديث وأخلاقي. وفي الهجوم الكاسح على المستوطنين وعلى طقوسهم الدينيّة كتب Amos Oz،

" لنكون شعباً حرّاً، فإنّ ذلك يعني أنّ كل شخص معني بإختيار أجزاء من التقليد اليهودي يعتبرها مهمّة بالنسبة له والتخلي عن أجزاء أخرى. وإنّ ذلك يعني أن يكون لدينا الحريّة بإدارة بلدنا حسب إرادتنا الحرّة بدلاً من الإملاءات الحاخاميّة ".

وردّت الكاتبة Naomi Regan على ذلك وهي متعاطفة مع المستوطنين، بقولها، " لا يمكن لإسرائيل أن تقسّم بين " لنا " و " لهم "، أو الى " إسرائيليّين " و " يهود ". " وإنّ الوطن مُقسّم فقط في عالم الأجنحة اليساريّة المتعصّبة مثل Amos Oz "، وكتبت Regan أنّ حياة فريقي الوطن متداخلة جدّا ومتضافرةً، وتابعت لتقول، الكل يخدم في نفس الجيش وهناك الكثير جدّاً من نقاط التواصل بين الإسرائيليّين والمتديّنين، فلا يصح الكلام عن إنشقاق في الوطن ".

وأثبت الإنفصال بأنّه لحظة تحديد الهويّة للمجتمع الإسرائيلي، وليس فقط مواجهة العلاقات المستقبليّة مع الفلسطينيّين وإنّما أيضاً مواجهة ما يتعلّق بالطبيعة الفعليّة لدولة إسرائيل اليهوديّة.

وفي المناظرة، تجاوزت الأسئلة الحدود، وكان ذلك جدالاً حول هويّة إسرائيل وروحها الصهيونيّة، لقد لامس النزاع عصب المجتمع الإسرائيلي: العلاقة بين اليهوديّة والصهيونيّة، والعلاقة بين الوطنيّة والدين.

إنّ التوتّر الذي حصل حول غزّة هو بديل عن جدال أعمق حول : هوية الإسرائيليّين وماذا يريدون أن يكونوا؟ وكالعديد من الديمقراطيّات التي عانت من حروب أهليّة عنيفة، فإنّ إسرائيل بعمر 57 عاماً تناضل- دون عنف حتّى الآن- لتوجد لنفسها هويّة.

Research Services Group
ResearchServics.Group@gmail.com